شاهد على عقلية لم تتغير

سلوى جراح

في خمسينيات القرن الماضي، كنت في مرحلة الدراسة الابتدائية، وكنا نعيش في مدينة كركوك. وكانت مدرستي "نموذجية"، أو هكذا يؤكد اسمها، "مدرسة كركوك الابتدائية النموذجية للبنات"، أي انها تقدم أفضل ما يمكن تقديمه للطالب. الصفوف منظمة، والمدرسات على قدر من المعرفة والأناقة. كما كانت المدرسة تعنى بتشجيع الطلاب على تعلم الفن والموسيقى والتمثيل وكتابة الشعر والنثر، من خلال جمعيات تمارس نشاطها مرة في الأسبوع بعد أوقات الدوام الرسمية. أذكر أنها كانت مكاناً رحباً منظماً، كنا نجلس على رحلات خشبية نظيفة ويقدم لنا في الصباح وجبة مجانية، "صمونة ولبلبي ساخناً وكوباً من الحليب، نتناولها في داخل الصف بإشراف إحدى المعلمات والفرّاشة الدربة. لكن أهم غرف المدرسة، بلا منازع، كانت غرفة "الست" المديرة. غرفة قريبة من المدخل الرئيسي، لها ما لها من هيبة وتبجيل، تحرسها الفراشة دائماً، خاصة في غياب المديرة ولا تسمح لأحد بدخولها. غرفة متميزة بأثاثها الذي تخلو منه العديد من بيوت الطالبات. ستارة، وسجادة و "صوبة علاء الدين" تتوهج في أيام البرد، وأريكة مع كرسيين، أي "طخم قنفات"، وطاولة وسطية صغيرة. ومع ذلك، كانت كل تلك الفخامة، وما يحوطها من تبجيل وحراسة، تنتقل إلى ساحة المدرسة حين يأتي مفتش وزارة المعارف، لزيارة المدرسة، خاصة الأريكة وكرسييها، ليجلس عليها هو والمديرة ومن معه، يشاهد نشاطات المدرسة الرياضية أو "الفعاليات" المدرسية الأخرى، في حين تجلس المعلمات وبقية الحضور على كراس صغيرة من الخشب أو المعدن. وهذه الظاهرة لا تختص بها مدينة كركوك وحدها، بل تشمل كل المدارس العراقية. فقد أمضيت سنين الدراسة الابتدائية أتنقل بين مدارس البصرة والزبير وكركوك بحكم عمل والدي، في شركة نفط العراق IPC الذي كان يفرض علينا الكثير من الترحال بين محطات ضخ النفط.

لم يختلف الأمر كثيراً في المرحلة الثانوية أو الإعدادية رغم المتغيرات السياسية الكثيرة التي حدثت في العراق منذ نهاية الخمسينيات حتى منتصف الستينيات. ظلت "القنفات" تخرج من غرف المديرات المختلفات، مع تعاقب السنين وتغير المفتشين، لتفترش الساحة في المدرسة كلما جاء مسؤول لحضور إحدى النشاطات المدرسية. خلال الدراسة الجامعية افتقدت هذه الظاهرة الغريبة لأني درست في جامعة "الحكمة" للآباء اليسوعيين في بغداد، ولم يكن المسؤولون يزورونها لأنها كانت جامعة خاصة. وفي حفلات الجامعة كانت ترص الكراسي المتشابهة لجلوس الأهالي والأساتذة ورئيس الجامعة والطلاب. ومن يصل قبل غيره يجلس في المقعد الذي يختار. لكن "القنفة" العتيدة ظلت من نجوم الحفلات الرسمية. ومع الوقت كبر حجمها، وطليت بالذهب وزُينت بنقوش عجيبة. والآن، بعد كل ما تغير في العراق، رأيتها، على شاشات التلفزيون، نجمة بلا منازع في مهرجان المربد التاسع الذي أقيم في البصرة. كانت تحتل الجزء الأمامي من القاعة، ويجلس عليها المسؤولون، ومن يحب أن يظهر في صحبتهم. بل شاهدت في حفل الافتتاح صفاً طويلاً من الشعراء بعضهم أسماء معروفة، وقوفاً بلا مكان للجلوس لأن "القنفات"، وهو طبعاً جمع "قنفة" ملحق بجمع المؤنث السالم، تشغل حيزاً كبيراً من القاعة الصغيرة. فما هو سر سحر "القنفة" ولم هذا الإصرار على استحضارها؟ ألا يستطيع المسؤول أو الوزير الجلوس مثل بقية خلق الله على كرسي؟

تقول المراجع في تعريف "القنفة" إنها، قطعة أثاث للجلوس المريح أو الاسترخاء. أول من استخدمها هم الفراعنة قبل ألفي سنة، ثم أخذها عنهم الرومان، لكنها كانت حكراً على الملوك والأباطرة. ومع تطور بناء البيوت وزيادة إحكامها من عوامل الطقس، ظهرت فكرة الكرسي ذي المساند وكان يحشى بالقش وشعر الحصان والريش. لكنه كان غالي الثمن، لا يقدر على شرائه إلا الأغنياء. وللأريكة أو "القنفة"، مسميات عديدة، منها الصوفا، المشتقة من اللغة العربية من كلمة "صُفة"، أي مصطبة تتراصف عليها المخدات والوسائد المريحة. كما تعرف الأريكة في بلاد أميركا الشمالية بكاوتش couch وهي كلمة مشتقة من الكلمة الفرنسية couche التي تعني سريراً، لكنها أصبحت مع الأيام تعني الأريكة المريحة. ولعل التعبير العراقي كوشة بمعنى وسادة، مأخوذ منها أيضاً، أو حتى "كوشة العروس" التي تجلس فيها في حفلة العرس مع العريس. وهناك تسمية أخرى هي الشازلونج، وهي أريكة بمسند من جانب واحد كانت الحسان يستلقين عليها ليرسمهن مشاهير رسامي عصرهن. لكن الأريكة لم تدخل حياة الناس العاديين حتى القرن الثامن عشر بعد أن تطورت صناعة النسيج في أوربا وأصبح العديد من منتجي الأثاث الخشبي يعلنون عن توفر هذه الأرائك لمن يطلبها. ولعل أشهر هؤلاء المنتجين للأثاث الخشبي في القرن الثامن عشر، توماس شيبيندل الذي تباع قطع الأثاث من صنعه في المزادات العالمية في عصرنا بآلاف الجنيهات.

المهم أن المراجع تؤكد أن الأرائك وجدت للراحة والاسترخاء لذلك فهي تتوفر في البيوت في غرف الجلوس، وفي الأماكن المخصصة لجلسة مريحة، في الفنادق والمطاعم الفاخرة للراحة والاسترخاء، ولعل هذا هو سر ارتباطها بالتحليل النفسي. صاحب الفكرة هو سيغموند فرويد، الذي كان أول من جعل مريضه يستلقي على أريكة مريحة ليسترخي وتتداعى أفكاره، فيروح يكشف غوامض خفية من حياته ظلت حبيسة عقله الباطن لسنين، ليمنح طبيبه المعالج الفرصة لمعرفة تفاصيل صغيرة لعبت دوراً أساسياً في تشكيل مخاوفه النفسية. لكن المراجع لم تذكر شيئاً عن استعمال الأرائك في المهرجانات والمؤتمرات أو خلال النشاطات المدرسية، لراحة المسؤولين. صحيح أن المسؤولين حين يظهرون على شاشات التلفزيون في مقابلة من مكاتبهم، يجلسون على كراس تشبه العروش. هم أحرار في مكاتبهم وبميزانيات وزاراتهم، أما حين يأتون لحضور مهرجان فيلم لا يجلسون على الكراسي العادية؟ لم تخرج لهم الأرائك من مكاتب المدراء؟ هل يحضرون لمجرد الاسترخاء، أم أن هناك فائدة حقيقية من حضورهم المهرجان أو المؤتمر؟ أقول لكم الحق تعبت من ملاحقة هذه "القنفة" الشرود، التي لا تكاد تستقر في مكتب مدير حتى تخرج من خدرها، لتتصدر قاعة مهرجان أو ساحة مدرسة، ومللت منظرها المتكرر الذي يلاحقني، مذ كنت طفلة صغيرة. لذلك أقول، أريحوا "القنفة" وأريحونا يرحمكم الله.

تلويحة المدى

شاكر لعيبي

كيف تكون مفكّراً حرّاً!

الدرس المستخلص من قصيدة غونتر غراس الأخيرة "ما ينبغي أن يُقال" التي أثارت ضجة كبيرة، ليس جمالياً، ولم تكن تنوي، في رأيي، أن تكون عملاً أدبياً محضاً، قدر ما كانت تودّ أن تعلن عن تمايُز ضمير الكاتب عن شروط الخضوع الجماعيّ وآليات النمط الثقافيّ المهيمن الذي يُحرّم على المثقف الاقتراب من موضوعات بعينها.

كيف تكون مفكراً حراً إذنْ في العالم العربي؟ أنت الشاعر والكاتب والصحفي والمفكّر الذي يعمل في شرط لا تمتلك فيه دائماً إلا الخضوع لسياسات الثقافة، في الصحافة والإعلام الذي تعمل فيه، أو أنت الذي لا يستطيع الرؤية خارج سياق وجهات النظر الجماعية السائدة في ثقافته؟

كثيرا ما تقرأ "ما يُقال"، وليس "ما ينبغي أن يُقال" بأقلام جمهرة من ألمع كتاب العرب وشعرائهم في الصحافة العربية الشهيرة. وعندما تسمع أصواتهم في كبريات الفضائيات، يحق لك التساؤل عن السبب الذي يدفعهم لعدم قول كلمة تخالف السياسة الفعلية لتلك المنابر بشأن قضايا الصراع السياسي والاجتماعي والثقافي الحاسم، وما الذي يدفعهم لنسيان ما يتوجب أن يُقال بوضوح. نعرف أن بعضهم يمتلك منظومة فكرية محكمة تتناقض بالكامل مع المنظومات الأيديولوجية لمنابرهم. كيف يستوي الأمر؟ بعضهم من أصول قومية عربية، آخرون ماركسيون، ليبراليون، مقاومون، معادون للاستعمار، مناهضون للصهيونية والرجعية، علمانيون... الخ. أمام بعض القضايا الخلافية التي تحتاج الى مفكر حر، يصاب بعض مثقفينا العرب بغيبوبة الوعي، خاصة إذا تعلق الأمر بما يعارض مواقف منابره ومستخدميْه، ليصل الأمر إلى درجة الشعور "بانحباس حراري" اليوم إزاء القضية الفلسطينية، وبالهستيريا من النووي الإيراني والارتباك بشأن الصراع الحالي على سوريا (وليس من أجل سوريا)، ثم بالتلعثم في استخدام مفردة "الإرهاب" في العراق (وليس في سواه). هذه قضايا معقدة، نعترف بذلك، لكن بها شيئاً من بداهة الوعي وتستحق مفكراً لا يخضع لعبودية المال ولا هيمنة الصوت العربي الموحّد. كأن بعضا منهم كتّابٌ تحت الطلب، لكن بأسلوب منمّق ومصطلحات حديثة ومنطق براغماتيكي. منطق يحسب حساب اللحظة ولا يحسب ثقل التاريخ. يوازن الآني ولا يتوازن مع وعيه وضميره العميق.

إذا ما استوعب البعض درس قصيدة غونتر غراس ودافع عنها، فهو يبدو وكأنه لم يقرأ الشطر الثاني من معادلتها المتعلقة بتهديد السلام العالمي القادم، من وجهة نظر غراس، من دولة محتلة محدّدة بالاسم، وليس دولة إسلامية تُحاكَم على نواياها. نحن لا ندافع عن مقالة غراس ولا عن هذه الدولة. وإذا لم نشاطر وجهات نظره هنا أو هناك، فإننا نلاحظ أن نمط مثقفنا يصمت على مضض على وجهة نظر مثل وجهة نظره الجديرة بالانتباه، لأن اللحظة هي لحظة صراع مموّليه مع هذه الدولة أو تلك لأسباب ليست سياسية فقط بل طائفية. خيرة مثقفي العراق الذين يشيح هذا المثقف العربي بوجهه عنهم اليوم لم يصمتوا عن شرط الصراع السياسي مع جيرانهم، بأثمان جد باهظة وأحياناً بأرواحهم، بعيداً عن شروط الكتابة الطائفية الضمنية التي يشتغل فيها أكثر من مفكّر عربيّ مؤطّر بشروط غيره. طائفية تطلّ برأسها مرة أخرى بشأن المسألة السورية مع زعم قوي خلاف ذلك (انظر تكفير أدونيس مؤخراً لهذا السبب عينه، وهو ما سنعود إليه).

ليس غونتر غراس بُدْعاً، قبله تشومسكي الذي ما زال يقول برفعة وحرية داخلية تليق بالمفكر الجدير باسمه، آراءه حول قضاياناً الساخنة، ما لا يستطيع مثقفنا المذكور قوله بوضوح تشومسكي وشجاعته.

إن الاحتفاء بقصيدة غراس في تلك الأوساط عينها يبرهن على الازدواجية والتناقض اللذين "انحشر" فيهما المثقف العربي قليل الحرّية: إنه لا يستطيع أن يمتلك صوتاً شجاعاً بمثل شجاعتها لكنه يحتفل بها، كأنه يحتفي بالذي يتمتم فيه بالسرّ.

ما نكتبه هنا، مرة أخرى، ليس دفاعا عن قصيدة غونتر غراس ولا عن آرائه، إنما تذكير بأهمية تفعيل المثقف الذي يمتلك زمام حريته الداخلية بالتمام، لكي يقول فكرة مغايرة "للمطلوب" وللوعي السائد.

الشاعر باسم فرات يتحدّث عن الأمكنة في نادي الكتاب

كربلاء /أمجد علي

المدن هي التي صنعت منّي شاعرا.. هكذا بدأ الشاعر المغترب باسم فرات الأمسية التي أقامها له نادي الكتاب في كربلاء، مضيفا أن على الشاعر أن يتصالح مع المكان لأن فيه جمالية وذكريات.

وفي بداية الأمسية قال مقدمها الشاعر سلام محمد البناي: إن باسم فرات منحته الغربة لكي يحتفي بالتنوع والانغماس بالثقافات المتنوعة بعد أن أخذت منه ١٨ عاما، ظل فيها عاشقا للشعر منذ أن لبس الفرات وشاحا له"، وأضاف أن الغربة لدى باسم فرات لها مؤثرات جعلت منه متفرغا بالكامل لمشروعه الشعري.. خاصة وانه كان يجاهر بحزنه الصاعد وهو يحاول مغادرة النسيان.

وتحدث فرات الذي قدّم العديد من القصائد التي كتبها في مدن مختلفة من العالم: إنه "عاشق ومتماه مع المكان لان المكان جميل".. وأضاف أن المكان موجود ولكن الشيء المهم هو أن التأثير يكون لصالح الإبداع.. مشيرا إلى أن "لدى كل شاعر نرجسية نحو المكان ولكن على هذه النرجسية ألا تطغى على الحياة، وان الغربة مؤثرات لأنها أمكنة تجرفك بحنينها إذا ما غادرتها أيضا وهي تشبه الأمكنة التي ولدت بها لأن فيها نكرياتك".. مبينا أن له قصائد عن بغداد تم اختيارها لتكون ضمن محاضرات في إحدى الجامعات الأمريكية، وأنا واحد من الشعراء الذين ضمتهم انطولوجيات عديدة في الخارج مع عدد قليل من الشعراء العراقيين الكبار.. وانتقد فرات الذين اسماهم من خرجوا من العراق وتحدثوا عن بطولات وهم ليسوا أبطالا وظلوا يخبرون الناس بما ليس صحيحا.. مبينا انه يكتب لنفسه ومتى يريد الكتابة وليس ما تريده الكتابة لأني لست بشاعر إشاعة اصنع بطولة خاوية.

وشهدت الأمسية العديد من المداخلات والشهادات والقراءات النقدية شارك فيها الباحث حسن عبيد عيسى، والصحفي ناظم السعود، والأكاديمي خضير درويش، والأكاديمي والشاعر محمد عبد فيحان والقاص احمد الجنديل وآخرون.

في مهرجان "كان" السينمائي الدولي:

خيال طفولي في جزيرة أميركية قصيّة ويوميات دمويّة بالقاهرة في افتتاح المهرجان

كان - عرفان شيد

وأطفأت مارلين مونرو شمعة المهرجان وانطلقت الدورة الخامسة والستون بحكاية تقرب من الخيال وبحدث هزّ العالم وأحدث تغييراً كبيراً في خارطة السياسة العربية وفي والمتوسطيّة. فيلم الافتتاح كان للمخرج الأمريكي ويس أندرسون، وشاهد جمهور المهرجان جديد المخرج يسري نصر الله.

فبعد أن كان المهرجان قد احتفى في العام الماضي بثورة ميدان التحرير التي أطاحت بحكم الرئيس المصري السابق، كانت العودة هذه المرة من خلال شريط يُسري نصر الله "بعد الموقعة" الذي يحاول رواية خلفيات حياة الناس إثر تلك الأحداث، وبالذات التمزّق المقصود الذي أحدثه النظام بسبب دفع البلطجية إلى مهاجمة ميدان التحرير وهم على ظهور الجياد والجمال.

وينطلق يسري نصر الله من منطق أن هناك ضحايا سقطوا في تلك الموقعة التي سُمّيت بـ"موقعة الجمل"، ومن الطبيعي أن يسود الاعتقاد بأن الضحايا هم أولئك الذين تعرّضوا إلى هجوم البلطجية وسقطوا جرحى وقتلى. لكنه يقلب زاوية الرؤية ويجعل ناظره يُحدّق من الطرف الآخر، أي من شارع فرسان الجياد الذين يعملون كأدلاء سياحيين عند الأهرامات، ومن خلال حكاية محمود "يؤدّيه باسم سمرة، الممثل المفضّل لدى يسري نصر الله"، الذي نزل ميدان التحرير على ظهر فرسه واعتدى على المتظاهرين وأوقع عن ظهر الفرس وأشبع ضرباً من قبل المتظاهرين وأثخن بالجراح. إلا أن الجرح الأكبر الذي أصيب به "حودة" هو فقدانه لكرامته كونه اعتُبر "بلطجياً" وليس فارس جواد يُجيد ترقيص الجواد على نغمات الموسيقى والصعود إلى قمة الهرم الأكبر قبل غيره من الأقران.

النظرة إلى "حودة" لا تأتي من أجوائه أو من المحيط الذي يحيا فيه بل من الطرف الآخر، من ناشطة من المجتمع المدني ريم (تؤديها منّة شلبي)، تراقبه، تحاسبه وتحبّه وتعيده في النهاية إلى "الطريق القويم" الذي يليق بابن البلد الشهم، المستعد للموت أيضاً، حين تقتضي الضرورة.

ما يُمكن أن يُسجّل ليسري نصر الله في هذا الفيلم، ليس فقط بحثه وتحديده الضحية الأخرى، بل أيضاً محاولته التفريق بين "البلطجي" و"الفارس".

المشاهد "غوليفر" في عالم صغار

منذ الوهلة الأولى في فيلمه "مملكة مونرايز" يضع ويس أندرسون المشاهد في حالة الإحساس بكونه مثل العملاق "غوليفير" في مملكة للشخصيات الصغيرة، وأن كل ما يحدث على الشاشة إنما يجري في مجسّم شبيه بمنزل الدمية باربي، وجاء استخدامه للمشاهد (الطبيعية والديكورات) المبنية على شكل مُجسّمات تصاميم، ترسيخاً لحالة القصة الخيالية "الفيري تيل" وتحرّكت الشخصيات أمام الكاميرا وكأنها من صنع خيال خصب، يقرب من خيال كتّاب ومخرجي أفلام الصور المتحرّكة، متى أن دمية ورقية وضعت في سرير بدت أكثر واقعية من الشخصيات الآدمية، تلتي كانت تبدو وكأنها رسوم لوّنت بأقلام الباستيل.

ورغم خيالية القصة ظاهرياً، فإن ما يعرضه المتميّز ويس أندرسون ليس خيالاً، بل هو يمس، عبر قصة حب بريئة وشاعرية بين مراهقين، سلسلة من القضايا تمس عمق المجتمعات المتطوّرة، إضافة إلى قضايا التبنّي والأجواء العائلية المتوتّرة.

تنطلق أحداث الفيلم في يوم اعتيادي للغاية لسكان جزيرة قصيّة وهادئة في نيو إنغلاند، عندما يقرر المراهق ذي الاثنتي عشرة سنة "سام" الهرب من المخيّم الكشفي الذي يدار بصرامة من قبل قبطانه وارد (إدوارد نورتون). يُوقع هذا الحدث الجزيرة الهادئة في حالة من التوتّر نكتشف بعد ساعات قليلة أن هناك هاربة أخرى، هي بنت الثانية عشرة "سوزي" التي ملّت الحياة مع والديها وأشقائها الصغار الثلاثة.

يلجأ الاثنان إلى منطقة قصيّة من الجزيرة ويعلنانها "مملكتهم" الخاصة ويقيمان فيها الخيمة الأولى، لكنهما يُفاجآن في الصباح التالي بنفيب الشرطة "شارب" - أدّاه بشكل ممتع بروس ويليس- ووالدي الفتاة السيد والسيدة بيشوب (وأدّاهما بيل مورّي وفرانسيس ماكدورماند) وقبطان فرقة الكشافة، وهم يحاصرون الخيمة الصغيرة ويُجبرانهما على العودة، هي إلى منزل والديها، وهو إلى حماية نقيب الشرطة لحين تسلمه من قبل عائلته، باعتبار كونه "غير ملائم للبقاء في المخيم الكشفي". وحين يكتشف الجميع بأن الصبي مهدّد بالإدخال إلى ملجأ للأيتام واحتمال تعرّضه إلى الذبذبات الكهربائية "لعلاج مشاكل عصبية لدية"، كما تقرّر المساعدة الاجتماعية (تؤدّيها النجمة البريطانية تيلدا سوينتين)، يلتف حوله أهل الجزيرة، بمن فيهم زملاء الصبي الذين ناصبوه العداء في السابق وحاكوا له المصائب، وتصل الحالة بالشريف الى أن يرفع في وجه المساعدة الاجتماعية هراوة غُرزت فيها مسامير عديدة للحيلولة دون تسلمها الصبي.

وكعادته، في جميع أفلامه، لا يترك ويس أندرسون الشاشة لبطل واحد بعينه، وبرغم أهمية الأسماء التي تؤدي معه، فهو يملأ الشاشة بحضور كورالي محتشد، ويبدو العمل مثل أوركسترا سيمفونية لا يمكن لها أن تستغني من أي من آلاتها، بصرف النظر عن أهمية وحجم المساهمة في السيمفونية. وهنا، كما في أفلامه السابقة، يقارب أندرسون بين نجوم من عيار بروس ويليس وإدوارد نورتن وتيلدا سوينتين ومورّي، وممثلين في عمر المراهقة الذين يؤدون أدوارهم بقدرات عالية وحاضرة.

فيلم مملكة مونرايز

فيلم نصر الله (بعد الموقعة)